جدارية «نوّار نيسانِ»: فرشاة رسم تُذيب فوارقَ الأعمار

غادة كردية

مشهد يتكرر كثيراً في ذاكرتنا الفلسطينية من الهجرة إلى الحرب، ولكن هنا كان المشهد مختلفاً. اجتمع طفل في السادسة من عمره مع رجل في الستين، ذاب ما بينهما من فرق العمر في فرشاة رسم وألوان، ورسما جنبا إلى جنب في لوحة واحدة جدارية نوّار نيسان على أرض ميناء غزة، لو كنت هناك وشاهدت المنظر لأدركت عظمة هذا الإنسان الفلسطيني.

عندما جاء المارة للمشاركة في الجدارية التي تعبر عن البحر، بما فيه من أسماك وأصداف وألوان، كان القاسم المشترك الذي رسمه الشباب والأطفال والكبار، ودونما سابق اتفاق، الحمام بأشكاله المختلفة التي تطير حول ميناء غزة، ربما هو إحساس داخلي بحاجتهم إلى الطيران، إلى التحليق عالياً، وكأنهم يرسمون حدود الدولة التي أعلنها الشاعر تميم البرغوثي في قصيدته، حيث كان الحمام يعلن دولة في الريح بين رصاصتين.

كان المارة في الساعة الواحدة ظهراً يمرون عنا ونحن نجهز الجدارية ونحضر الألوان وأدوات الرسم المختلفة والصدف والصمغ والرمل، يتأملون ما نفعل، ونسمع تعليقات كثيرة، منها ماذا يفعل هؤلاء؟ من هم؟ يمكن مؤسسة مهتمة بالأطفال؟ يمكن رحلة؟ لكن ما يقومون به جميل.

يعلقون ويمشون، عندها لا أدري لماذا شعرت بشعور سيدنا نوح عليه السلام عندما كان يبني سفينته ويمر عنه الناس ويسخرون منه: أين البحر الذي ستسير فيه هذه السفينة، وعندما أتم بناءها وحمل فيها من كل زوجين اثنين من المخلوقات كافة، تماماً كمن جاء وشاركنا في رسم الجدارية من كل الفئات العمرية من أبناء هذا الشعب من نساء ورجال وأطفال، هؤلاء هم الناجون في سفينة نوح، استطاعوا أن يتخلوا عن كل المبررات لعدم المشاركة في الجدارية، استطاعوا أن يعطوا الدافع لآخرين للمشاركة، وأسقطوا كل حواجز الرهبة من الآخر، واندفعوا في خلط الألوان وتناول الصمغ ورسم الأسماك وإلصاق الصدف، استطاعوا أن يتحاوروا، بماذا نلون الطحالب؟ أنا سألون هذه المساحة، أنا سألون هذا النوع من السمك، ماذا نسمي هذه الأشكال؟ كيف يلون نجم البحر؟

غاص كل من شارك في الجدارية في أعماق البحر، وقبل ذلك غاص كل واحد منهم في أعماق نفسه، حيث استطاع كل واحد منهم أن يجد المساحة والوقت الذي يتحرر فيه من عبودية التفكير في أزلية المشاكل العالقة في حياتنا اليومية.

كل من شارك في جدارية أعماق البحر على الرصيف الخارجي لميناء غزة، كان يشبه الناجين في سفينة نوح، هم نجوا من الطوفان، وكانوا مؤمنين، وهؤلاء نجوا من الخوف والعزلة ورهبة المشاركة وتقبل الآخر، فكانوا مواطنين صالحين. كان كل من شارك في الجدارية يرسم ويلون وهو يحدد البداية، ووقت النهاية تحدده تنهيدة تنم عن ارتياح وشعور بالاكتفاء التام من التلون والرسم، هذه التنهيدة لو اجتمع كل الأطباء النفسيين ليجبروا طفل صغير أو شاب أو رجل على أن يتنهدها لن يفلحوا، ولو أفلحوا فحتماً لن يكون النجاح كما حققته جدارية نوار نيسان التي فرّغ فيها كل من شارك فيها انفعالاته، وأسقط عليها همومه وأحزانه. لا أنسى الشاب الذي جاء ليرسم وقال: «أنا مروح من امتحان في الجامعة ما قدمته، لأنهم طردوني لأني مش دافع الرسوم»، أخذ يسترسل في الحديث عن همومه وهو يرسم ويلون مرة علم فلسطين، ومرة طائراً كبيراً. عندما انتهى نظر إلى ما رسم، وقال: «والله طلعت الرسمة حلوة. أظن إنو بيجي مني وضحك ومشي».

طلب منا أن نعطيه فرشاة الرسم لا أعلم لماذا، ربما لأنها الشاهد الوحيد على لحظة جميلة عاشها هذا الشاب وهو يلون ويرسم في جدارية نوّار نيسان.

مدرسة بنات الزيتون الإعدادية «ب»